بكل حكمة ودراية . وبسبب العناية في الاختيار والدقة في ترتيب المقطوعات المختلفة ، نرى ان وجهة نظر الكتاب تنمو بشكل تراكمي قلما نشهده في كتب المختارات . ومن مجرد زاوية الحصول على المعلومات، فان باستطاعة الكاتب أو القارىء العادي ان يجد في هذا الكتاب فيضا من المواد الاصلية والموثوقة والتي تقدم صورة شاملة للمحاولات الصهيونية للسيطرة على فلسطين .

وفي هذا الصدد لا بد من الاشارة الى القيمة الكبيرة للملاحق التسعة التي تضم خلاصة جهد واسع من البحث قام به الاستاذ الخالدي حول استيلاء الصهيونيين على فلسطين . وقد اثارت هذه الملاحق شهيتنا لمثل هذا العمل الذي كنا بانتظار صدوره منذ زمن بعيد . وهناك ملاحظة هامة حول هذه المختارات ، هي انه من بين الثمانين مقطوعة التي يضمها الكتاب ، هناك واحدة فقط لكاتب عربي (في القرن الثالث عشر)، وثلاثة لكتاب آسيويين ، اما المقالات الاخرى فهي لكتاب غربيين واسرائيليين ، منها ثلاثون مقالة لكتاب يهود ، سبعة وعشرون منهم صهيونيون ملتزمون . وذلك لان القصد الذي كان يرمي اليه المحرر هو ان يجعل الصهيونية تتكلم عن نفسها بنفسها ، ولم يسمح لشخصيته بالبروز سوى في المقدمة الطويلة التي لفت فيها انظار قرائه الى معالم يهتدون بها خلال مسيرتهم بين دفتي الكتاب ، كل ذلك بعد ان ضبط مشاعره وآراءه .

ولمثل هذا الصنف من الكتب جانبان : فهناك المادة الملموسة التي يقدمها ، ومن ثم تأثير هذه المادة، اي الترجيعات التي تحدثها في نفس القارىء . وبالنسبة لقارىء هذا الكتاب ، فان للتأثير او الترجيعات تأثيرا عكسيا ومثبطا ، كما اشير الى ذلك اعلاه . فما ان فرغت من قراءة النصف الاول من هذا السجل للانتصارات الصهيونية حتى شعرت بنوع من الفزع ، وما ان انتهيت من قراءة النصف الاخر حتى انتابني نوع من الغم العميق . وذلك لان ما تظهره مختارات الاستاذ الخالدي هو أن الصهيونيين كانوا منذ البداية يعرفون بالضبط ما يريدون ، وانهم وضعوا لذلك خططا متكاملة بعيدة المدى ، كما انهم وضعوا هذه الخطط موضع التطبيق بكل ذكاء وتفان متناه وباستخدام اية وسيلة ، وكل الوسائل التي كانوا يعتقدون انها تبرر غاياتهم . وفعلا نجحوا في ذلك . وهذا العرض المؤثر لا بد ان يثير الانطباع التالي « يا ليت الفلسطينيين فعلوا الشيء ذاته»، وهذا بدوره يثير التساؤل التالي : « لماذا لم يفعل الفلسطينيون الشيء ذاته ؟ »

اننا على يقين بأن هذا الانطباع المؤسف او هذا السؤال المحرج لم يكن هو الذي رمى اليه المحرر. لذلك لا بد من ان نسأل : كيف حصل مثل هذا التأثير العكسي ؟ من الواضح انه كان يعتقد بأنه لو عرض لقرائه السجل الصهيوني كما هو ، بكلمات الصهيونيين انفسهم دون اية اضافات ، فان ذلك من شأنه ان يدفع بهؤلاء القراء الى استنكار الجشع والوحشية والنفاق الذي تميز به هذا السجل ، نعم ، لا بد ان يستنكروه ، ولكنني اعتقد انهم لن يفعلوا ذلك ، لاسباب عدة . أولا ، لقد انتصر الصهيونيون ، والانتصار يبرر الاعمال التي لا يمكن تبريرها وقت الهزيمة . ثانيا، هناك التأثير التآكلي للزمن فتسارع الاحداث اصبح جنونيا في عصرنا لدرجة ان ما حدث في ١٩٤٧ — ١٩٤٨ يظهر وكأنه حدث منذ زمن بعيد وما جرى في ١٩١٩ — ١٩٢٠ كأنه في القرون الوسطى بالنسبة لنا . ثالثا ، من كثرة ما شهد عصرنا من احداث رهيبة اصبح الضمير الدولي متحجرا : فبكل بساطة يعتبر العالم الفلسطينيين المشتتين عدديا اقل بكثير من ملايين الهنود او الباكستانيين او البيافريين أو سكان التيبت المشردين. لذلك ، عندما تعرض قصة الفلسطينيين بشكل مجرد من العواطف لن يكون لها ، في الحقيقة نسبيا ، التأثير المطلوب . ولكن القصة نفسها تظهر بحقيقتها الانسانية — المأساوية فقط لو اخرجت في قالب اخلاقي ، او اذا شئت ، جدلي يمثل وجهة نظر واحدة . وهذا هو بالضبط ما حاول المحرر تجنبه عمدا . ففي الصفحة ٢٦ من مقدمته يقول : « ليس القصد الرئيسي على الاقل من هذه المختارات ، جدليا » . وهذه المحاولة في الظهور بمظهر الموضوعية الادبية ، خاصة بالنسبة للفلسطينيين ، أمر يؤسف له لانه لا يوجد بين السيل الذي لا ينتهي من الكتب عن فلسطين واسرائيل مما كتبه الصهيونيون أي كتاب غير جدلي . هناك عدد قليل كانه من الكتب التي كتبها الفلسطينيون بالانجليزية عن فلسطين ، ولكن عندما يعد شخص بمستوى وليد الخالدي